المحللين ، مدفوعين قبل كل شيء باعتبارات فعالة ، قد تأثروا في استنتاجاتهم بالحاجة الى السيطرة اكثر من الحاجة الى الفهم ...» ويغيب عن بال الاستاذ شرابي العلاقة القائمة بين دوافع الفهم ودوافع السيطرة . اليست السيطرة هي في نهاية المطاف وبمعناها الواسع غاية للفهم ، لكل فهم ؟ ان علماء الاجتماع يدركون ذلك جيدا . الذين درسوا التجربة الهتلرية لم يفتهم مثل هذه الملاحظة الاستنتاجية . واية صفة علمية اجتماعية يضيفها الكاتب على المحللين الاسرائيليين الذين يستنتجون على حد قوله « .. بأنه في اخر الامر لا شيء يمكن ان يغير طبيعة الجندي او الضابط العربي » . فأي علم قال لهم وله : بثبات طبيعة الانسان أصلا ؟

وبعد ، يعرض النظرة الاسرائيلية الى الفدائيين: « ارهابيون » « متسللون » « مخربون » . هذا رأيهم . فما هو رأي الكاتب ؟ في تناوله « تقويم الفدائيين » ، يقول : « ويعتبرونهم ظاهرة عابرة على سطح مسرح الشرق الاوسط » ، « ... اسرائيل تستطيع الصمود في وجه الارهاب العربي الى الابد » . طبعا نحن لا نريد من الكاتب ان يقول لنا « ان العرب سيزيلون اسرائيل غدا » ، مثلا ، ولكننا نفترض فيه مناقشة صحة الافتراضات والتقويمات الاسرائيلية لا اكثر ، خاصة وانه نسي انه يبحث في صدق وفاعلية الفدائيين الفلسطينيين — وليس في صدق وفاعلية الاسرائيليين . ويكتب عن اصابات الاسرائيليين والسياسة المضادة للحركة الفدائية . وعندما يتحدث عن الفدائيين لا يحلل بنيانهم الاجتماعي والنفساني ، وانما يعتمد اسلوب التصنيف الاميركي السائد عندهم في علم النفس الاجتماعي الرسمي ، ويسحب خلفيته السياسية على قضية الفدائيين ، فيقول : « واذا اصبحت سيطرة اسرائيل اكثر احكاما واشد كبحا ، اتجهت اعداد متزايدة من افراد **الطبقة الوسطى والطبقة الوسطى الدنيا** الى اتخاذ موقف اكثر تحديا لقوى الاحتلال والى مساعدة المقاومة». نحن نعرف منهج التراتب الاجتماعي La stratification sociale الذي يهيمن على علم الاجتماع الرسمي الاميركي، ويصنف الناس الى طبقات : طبقة عليا عليا ، طبقة عليا دنيا ، طبقة وسطى عليا ، طبقة وسطى دنيا ، طبقة دنيا عليا ، طبقة دنيا دنيا . فهل ينطبق مثل هذا التراتب — غير الصحيح حتى في المجتمع الاميركي — على الفلسطينيين والعرب وكيف ؟ العمال والفلاحون والطلاب الفلسطينيون من هم طبقيا ؟

اما « فاعلية الحركة الفدائية » فيعالجها في خمس صفحات ونصف لا غير . وليس انتقادنا لكمية الصفحات لو ان الكاتب وفى الموضوع حقه من البحث والتدقيق . فهو يحصر هذه « الفاعلية » في العقاب الجسدي العام والوفيات اثناء التدريب ، وبأن « كثرة الانفار اصلهم من الطبقة الوسطى الدنيا » . هل تأكد تحليليا من صحة اقواله ؟

ثم يخرج كليا عن الموضوع ، بعد ان خرج عنه جزئيا فيما سبق نقده . فيتناول تعدد المنظمات الفدائية — المحصورة وقتها باثنتين — ، ويستطلع « المرحلة القادمة » و « المرحلة القادمة مشكلاتها ومطامحها » . ولا نرى ما هي الحكمة في تصنيف المرحلة القادمة ودرسها في فصلين مستقلين . وبدلا من ختم كتابه باستنتاجات محددة ، يختمه عمليا بملاحق وصور . بقي لنا ملاحظة اخيرة هي ان هذا الكتاب الصغير ، فكرا وكمية ، يعتبر باهظا جدا ( ٨٨ صفحة ، ٤ ل.ل. ، في حين ان كتبا اخرى افضل نوعا واكبر حجما هي في حدود الليرة او الليرة والنصف ) .